بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

فى الكتاب الذى أصدرناه منذ شهور عن «مصر والسيادة على السودان» أوضحنا ماتستند إليه مصر من حقوق شرعية فى أن يضم وادى النيل بشطريه سياج واحد فى ظل تاج واحد كما كانت الحال فى عهد محمد على الكبير وخلفائه من أفراد البيت العلوى العتيد . ولا ريب فى أن حصفاء القراء من ذوى الأفهام السليمة والفطر المستقيمة قد استبانوا من خلال السطور ومن تلقاء أنفسهم أننا حين ذكرنا لفظ السيادة إنما قصدنا معناه الفقهى وما ينصرف إليه من تعيين مقر السلطة العليا فى الدولة لا المعنى اللغوى وما ينطوى عليه من فكرة السيطرة والاستعلاء .

على أن هناك موضوعاً آخر له وزنه وخطره فيما يتصل بشؤن مصر والسودان ونعنى به النهج الذى سلكه المصريون فى إدارة السودان . وقد استطعنا — على ضوء ماتوافر لدينا من الوثائق وأقوال المعاصرين — أن نكشف عن الأسس التى استرشدت بها مصر فى حكم جنوب الوادى مدى ستين عاما فاتضح أن مايسمى اليوم سودنة الوظائف ليس بالأمر الجديد بل كان أسلوبا من الأساليب الإدارية المألوفة فى عهد محمد على وخلفائه ، وأن الحكام المصريين كانوا يعتبرون مصر والسودان قطراً واحداً يعملون على إسعاده دون تفرقة بين أهل الشمال وأهل الجنوب وليس أدل على ذلك من تلك الأموال الطائلة التى كانت ترسل فى كل عام من القاهرة إلى الخرطوم لسد ماهنالك من عجز فى مالية السودان .

وإذا كان هناك مايؤسف له فهو أن جميع هذه الحقائق الثابتة قد طمستها يد الزمن وأسدلت عليها ستاراً كثيفاً من النسيان ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل قدر لتلك الحقائق أن تتعرض لضروب من المسخ والتشويه بات معها الحكم المصرى فى السودان موسوما بطابع القسوة والاستغلال . ولما كانت هذه الأكذوبة التاريخية الضخمة قد استقرت فى بعض الأذهان على أنها حقيقة ثابتة فلم يكن هناك معدى عن أن أضع كتاباً يكشف عن وجه الحق فى موضوع كبير الأثر جليل الخطر كهذا الموضوع . فالواقع أن الحكم المصرى فى السودان كان حكماً صالحاً مستنيراً يستهدف رفاهية السودانيين خاصة وخدمة الإنسانية عامة . شهد بذلك قناصل الدول فى الخرطوم الذين زاروا السودان والراية المصرية تخفق فوق ربوعه . أما تلك الثورة الجامحة التى أشعل المهدى نارها فليست دليلا على سوء الأدارة المصرية إذ كانت فى حقيقة أمرها فتنة هوجاء قام بها تجار الرقيق ضد طائفة من الموظفين الأوربيين فى السودان لم يصطنعوا الريث والأناة فى محاربة الرق والنخاسة بل ركبوا متن الشطط وأبوا إلا القضاء عليها « بالنار والسيف » فى أقصر وقت مستطاع متجاهلين سياسة التدرج ومخالفين طبيعة الأشياء .

على أنى قد أخذت نفسى عند وضع هذا الكتاب بالتزام الأمانة العلمية ولهذا لم أدع الحقائق تمر دون أن أسجل مصادرها فى هوامش البحث كما عنيت بنشر طائفة من الوثائق والمصورات والمراجع استكمالا للفائدة . وإذا كنت قد استطعت أن أفرغ من هذا البحث فى زمن وجيز فقد أعانى على ذلك ما وجه إلى من دعوات كريمة لألقاء بعض المحاضرات العامة فى الموضوع الذى أعالجه وقد ألقيت أولاها فى نادى القنال ببورسعيد فى ١٤ مارس ١٩٤٧ عن « الحكم المصرى فى السودان » وثانيتها فى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة فى ٢٧ مارس وموضوعها « بين مصر والسودان فى العصر الحديث » أما المحاضرة الثالثة

فألقيت فى اتحاد كلية الآداب بجامعة فاروق الأول بالاسكندرية فى ٢٠ أبريل عن « عهد المصرية فى السودان » .

وبعد فما يجمل بى أن أضع القلم دون أن أعترف بتلك المساعدات القيمة التى لقيتها من زملائى وإخوانى الأفاضل حضرات الأساتذة عبد المقصود العنانى وسيد محمد خليل وفؤاد بطرس زكى وأحمد فريد على مصطفى ويوسف خليل جاد الله واحمد عبدالرحيم مصطفى ؛ كما أشكر لصديقى الأستاذ محمد أحمد الجابرى ما أفدته من واسع خبرته بشئون القطر الشقيق بعد أن قضى سنوات طويلة فى خدمة حكومة السودان . ولا يفوتنى كذلك أن أنوه بجهود الآنسة ليلى عبد اللطيف الصباغ لمـــا بذلته من معونة صادقة فى إعداد الوثائق . جزاهم الله عنى جميعاً خير الجزاء ؟

القاهرة : يونيو ١٩٤٧

المؤلف